علي وجيه يكتب: نظرةُ الألم المخدّرة

ثمّة نظرةٌ تعتلي وجه الضحايا، تتكرّرُ كثيراً، نظرة ساهمة، نظرة تجاوزت مفهوم الفزع، الألم، القلق، أو الرغبة بالنجاة، وهذه النظرة تتكرّر بشكلٍ مستمر، في جميع المحتوى المرئيّ المتعلّق بالحروب، ستراها في الأفلام الوثائقيّة وحتى الروائيّة المتعلّقة بالحرب العالمية الثانية، مروراً بكلّ مشاهد الإعدامات الجماعيّة، وليس انتهاءً بضحايا القاعدة وداعش وغيرهما.

مَن يتذكر النظرة هذه على وجوه الرهائن الأجانب، قبل نحرهم بثوانٍ؟ ينظرون إلى نقطةٍ بجانب الكاميرا، باطمئنان أو يأس أو حتى أمل نحيل بأن يتجاوز هؤلاء فكرة القتل، أو النحر، عشراتٌ من هذه النظرات كانت على وجوه فتية سبايكر، وحتى الذين كانت تعدمهم داعش فرادى بفيديوهات عالية الجودة؟

هذه النظرة، تأتي مصاحبة للألم الجسدي، أو أعلى درجات الألم النفسيّ، حين تعجز الذات الضعيفة عن تقبّل فكرة أنها ستفنى بعد قليل، وهي تماماً ذات النظرة، أو الوضعية الجسدية التي كنّا نراها في مشاهد ضحايا صدّام، حيث يبدأ الجلاّد الضخم بجلد الضحية، التي تحاول أن تتفادى الضربات، والتوسّل "دخيلك سيّدي، وا مو آني"، ثمّ سكون الضحيّة متعرّضاً للضرب، ناظراً إلى الفضاء، أو سقف المعتقل، أو أيّ مكان جحيميّ آخر، وذلك ما يُسمى بـ"خدر الألم".

قال لي سجين سابق "أوّل ١٠ ضربات فقط هي المؤذية، بعدها يخدر الجسد، ولا يعود الألم إلاّ بعد جلسة التعذيب، وأنتَ في الزنزانة"، طبعاً هذا إن كان جلداً فقط، دون كسر أو رضّ.

في وضعٍ محتدمٍ مثل هذا الذي نمرّ به، حيث كلّ شيء على وشك الاشتعال، وربّما سيشتعل أو سينطفئ، فهكذا تعوّدنا في البلاد مفتوحة الاحتمالات، لا يتعاطى بالشأن السياسيّ والقلق إلاّ قليلون، هم ذاتهم كانوا من أصحاب المواقف تجاه الانتخابات التشريعية مثلاً، مُنتخبيْن ومُقاطعين، وهم نفسهم المحتجّون، والمعلّقون في فيسبوك، وتويتر، وهم نفسهم الذين يشعرون بأنهم معنيّون بكلّ حدث، لكن بقياس النسبة والتناسب، مع ٤٢ مليون عراقيّ تقريباً، لا يشكّل هؤلاء أكثر من ٤ ملايين، وهي نسبة قليلة.

ولعلّي أبتعدُ عن توصيف "الأغلبية الصامتة"، فهذه الأغلبية التي تُجلَدُ بكرةً وعشيّا من قبل هذه

الفئة المهتمة بالشأن السياسيّ، هي أغلبية كانت تنتمي لهذه الفئة المهتمة نفسها، لكنّ تعاقب الجَلْد، وخيبات الأمل، جعلها تحصرُ اهتمامها باليوميّ و"أدنى طماحٍ غير مضمونٍ" كما يقول الجواهريّ، فالجماهير التي خرجت عن بكرة أبيها لمساندة "الائتلاف الوطني العراقي" والتصويت على الدستور، تجاوزت نكسة الحصار الاقتصادي، وحربيْ إيران والكويت، لكن ما الذي تبقّى بعد الحرب الأهلية؟ وحتى الذي تبقّى بعد ذلك: ماذا وجد بعد سقوط ثلث العراق بيد داعش؟ أو احتجاجات تشرين وهي تعود خائبة إلى المنازل مع ٨٠٠ ضحية؟

أولئك المتعاطون بالشأن السياسي، هم من الذين ما زالت تعمل لديهم الحسّاسات الجسديّة والنفسيّة، وهم في خضمّ هذه الأجواء، لكن الأغلبية المُخدّرة بسبب الألم، والنكسات، وخيبات الأمل المتكررة، تلك التي تراها في سيّارات النقل العام، ودوائر التقاعد، ومقاهي المراهقين العاطلين عن العمل، هي جماعات خدّرها الألم، وظلّت نظرتها الساهمة تخترق الفراغ، تلك النظرة التي يبدو أنّها غير مهتمة إن اشتعلت حرب أهلية هذا الأسبوع، أو تشكّلت الحكومة، أو احتلّ العراق أيّ بلد آخر، وهي ذات النظرة التي شعرت بالحزن لأن الصاروخ الصينيّ – ورغم وقوع العراق في رقعته الجغرافية – اختار بلداً آخر!